نبيل منصر

كتاب الأعمى

شعر

منشورات



وزارة الثقافة

سلسلة إبداع

نبيل منصر

كتـــاب الأعمـــى

منشـــورات
وزارة الثقافـــة

نبيل منصر، الأعمى
الإيداع القانوني : 2011M0 0258
ردمك :978-9954-0-4243-4
منشورات وزارة الثقافة، 2011
سحب مطبعة دار المناهل، 2011

كلمة إهداء

أختي،

"قَدْ رتّبَ الموتُ سريرَ اللَّيل في قلبي"

إلى تورية

ضَريرٌ كالنَّظرة الَّتي نتبادلُ

يُقبِّل شَفتَيَّ الزَّمن

بول تسيلان

﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾

(النمل/ الآية 29)

يدي العمياء

منحتُها للأعمى

قدماً تَضربُ في التّيه

وذكرياتٍ صغيرةً

تتدلّى كوطاويط مُفتّحة العيون

مِن

حَبل

المُنتحِر

هو الأعمى،

أنا النَّفَس

أحَرِّك العتمة

بِحذْس فراشة

تقتاتُ على الضَّوء

أنا الأعمى،

هو الماءُ يَجري

دافقا مِنّي إليه

جارفا روحي مثل بَقرةٍ وحشية

داهمَها العطش.

قيل ذهبتْ حياةٌ

مِن هنا

وجاءتْ أخرى مِن وراء البحار

باخرتُها المَنهوبةُ،

تتهادى مثل أنثى قِرشٍ

مطعونةٍ

بين الأمواج.

عَنكبةُ اللَّيل

باضتْ بِقلبِ الأعمى،

أنا أُرضعُ صِغارَها، وهو يُغطِّيهم

بأوراقِ العشب.

الزرافةُ الَّتي أطلَّتْ مِنَ الجُبّ

الوعلُ الذي تَرك عينَه بالأسلاك

الأفعى التي تدبُّ بِجِلْد محروق

الشمسُ النافقة مِثل امرأةٍ في غدير

الشذى القاتلُ لِوردة الغَد

كلُّها خَبرتْ

رقصةَ الشَّمعة

بِجْوف الأعمى.

الوردةُ المتوحشة

تتفتَّح بداخلي

قدماي تسعيان

بِدَأَبِ دودتين

تقتاتان من وَرقِها الأحمر

الذي يلُفُّ جِذعي..

النَّملُ الذي يَقرضُ روحي بلا انقطاع

يتراءى لي عند الفجر

ساعيا بِقطع من الندى

فوق جِلد الأشياء.

أنا هو،

كلُّ الحشراتِ الجامدة

كلُّ الأفواه

كلُّ ذواتِ الأجنحة والمناقير

الشبيهةِ بأقلام مِبراة

ترصُد حركةَ هذه الكائنات السوداء

التي تنهمكُ طوال الوقت

بِحفر بَيْتها العميق

أسفلَ قدمي!

الأعمى

يَتَّكئ على اللَّيل

بِيدٍ تَدهَسُ أرواحَ الأزهار

كلماتي الصغيرةُ ترتعشُ

بِقَلْبٍ ميِّتٍ

لَمْ يعُدْ يسع هواءً

تقفزُ به الضفادع

خلف

حشراتٍ

طائرة.

الضِّفدعةُ

جارَةُ الأعمى

بهذا

الوادي السَّحيق.

الصَّباحُ

يُنادي على موجةٍ نافقة

بأطرافِ المدينة،

الرِّيحُ

تُقلِّب صفحاتٍ مِن كتابٍ مُمزَّق

أكورديونِ الأعمى يُشَيِّعُ الطريق

بأغنية لا أحد.

أمشاجُ الحياة

التي سَقطْنا مِنها

سَقطتْ مِنَّا:

شذراتُ طين

فسيفساءُ ماء

وقبسُ نار

الأعمى يُلَملم فخَّارا يَمشي إلى النَّبع

بِعُنفوان غزالة،

أنا أُرَمِّمُ قَدَماً

تَستوي واقفةً

كمَا يَقف الذئبُ على هضبة

باعثا عُواءَه مع النَّسيم.

كلماتي

على ظَهر الأعمى

تَرنّ

مِثلَ كيس نُقودٍ غابرة

كلماتُه تلمعُ في يدي مِثل سَمكات تحتضر

أنا

أذْكُر عَيْنَيهِ

بُحَيرتين ميِّتتين

هو

يَذكُر عَيْنَيَّ

شِباكا جافَّة مفرودة على الرمل.

الصمتُ

يَعبثُ بالأحشاء

مثلما تفعلُ الرِّيح بِعُشٍّ طائر

ألتفتُ مِن عُمق الماضي

على وَقْع أعشابٍ وريشٍ منثور

أتحسسُ بيدي

حياتي التي زَجَّ بها الأعمى

في قَفير نَحْل

عسلُ الطريق

موتٌ مُصفَّى

آه.

الأعمى يقيناً

قَرأ كِتابَ البارحة

قَبلَ أنْ يُمزَّق

قَبْلَ أن يأتِيَ التنينُ

ويَنفُث رماداً في عَينيه

"الماضي أرضُ المُبصرين"

قال الأعمى

لِيَد الشاعر

التي كانت تُصْخي لِأمواج تُمزِّق

صناديقَ أمواجٍ أخرى

في يَــمٍّ بعيد.

تَحْتَ النّافذة

يلعبُ الليلُ والبحرُ والأعمى

ثُعبانٌ يَمضي بِنَظْرتي تَـحْتَ مُويجَةٍ نافقة

مَن الذي جَعلَني أقفُ

وأقلِّبُ الكِتابَ بنارٍ في الأصابع؟

مَن الذي

جَعلَني أترمَّد؟

قال الأعمى:

أيُّها الطائرُ
إذا كُنتَ مِن مَركب المُعجزات
خُذْ ريشتي إلى اليابسة
وامنحْ كلمتي
غيبَ الجناح!

مَن يَتَرصَّدُني

وراءَ

بَيْضَةِ

الصباح؟

عُواء

أيِّ ذئبٍ بشري

يَكمنُ لي

خَلفَ

أرواح

الشجر؟

يا نايَ أُورْفي

اِصْعَدْ مِن قَلبِ الجَحيم
وانشرْ أغنيتَكَ الأخيرةَ
بِصحراء الأعمى
المَحروسةِ
بألفِ كَلْب!

كَعَقْربٍ يُقْبِلُ الغدُ

كعاصفةٍ صحراءَ تَطمِرُ

الزّادَ والقافلة،

خُطُواتي تَدفِنُ خطواتي

أيُّها الأعمى

إذا مَررْتَ مِن هُنا

خُذْ مِعطفي

وخاتمي

ولا تأخُذْ عَصايَ وطريقي!

لَوْنُ طائري أحمر

لونُ شَعَري أسود

لونُ عيني بياضٌ لا يُشبه الثلج

أنامُ مُتوسِّداً يدي

تَمضي الساعاتُ على الرمل وعلى يدي

ولا يمضي الليل!

أيُّها الطائرُ

إذا مَررتَ بمدينة العُميان

قِفْ فوق المِئْذنة

وَاصْدَحْ

حتَّى تَمضي أحذيةُ الجنود

الثَّقيلةِ كالقدر.

أيُّها الطائر

أذكُرني عِند غِنائك!

الهواءُ النَّاعمُ
ثقيلٌ على جَناح الفَراشة

الجَناحُ المفرودُ
صَغيرٌ على أعشابِ المتاه

بِهذا المَكان

يُعوزُكَ المشيُ إلى الصَّباح
والصباحُ بِمَدينةٍ أخرى!

أيتُها القَدَمُ تَقدَّمي

ولا تَدَعي
أثراً لِجِلْدكِ الَّذي خَلَّفتهِ على أحْجَار اللَّيلِ
وَتَسلَّلت بينَ الأشواك
بِرُوح ثُعبان.

الأعْمَى،

يَجدُ الوقتَ شَحَّاذاً

يَسْبِقُه لِلْفَجْر،

ويَضعُ في يَديه بُرتقالا

وسِرّاً يبيعُه للنَّاس.

الوقتُ،

يَجِدُ الأعمى شاعِرا

يَسبقُه للوادي

وَيَضعُ في يَديْهِ تُفاَّحا

ودُودَتين، واحِدَةٌ مِنهُما أسبقُ إلى قَلْبِه

مِنْ دَفْقةِ الدَّم.

الثلجُ الَّذي

يَفيضُ مِن شُبَّاكِ الشتِّاء

العُشْبُ المُمزَّقُ بمَخالبِ الخَريف

والصَّيفُ الهاربُ

مِن حَدِيقتنا

كَجَرادةٍ تَتسلَّلُ عَبر السِّياج

كُلُّها تَعرفُ

أنَّ اللَّهبَ يُحلِّقُ طوالَ العام

فَوْقَ رَأسِنا

وإذَا هَبطَ يوماً

فَلِكيْ يَشُكَّ مَخالبَه في سَمَكةٍ تَتلألأُ وتُغَنِّي

تُغَنِّي وتَتَلألأ!

اللّيلُ

كِتابُ الأعْمَى

وعيناهُ

أحجارُ زَهر

الرَّخامَةُ الأبْرَد مِن نَعْي

تَنتظرُ منذ

مُرور جناح الغُرابِ بمائدتنا،

مَنْ يَحفُر عَلَيها عَلامَة!

يا قَطرَةَ الشَّمْس

اغسلِي أجداثَنا البارِدَة

الدُّنيا وَرْشَةُ إصْلاح والخيالُ مِيكانِيكي الغَيْب.

يمُرُّ الوحشُ

ولا يَقفُ شَعَرُ الغريب

يَقِفُ الشَّبحُ

ولا يَندلعُ بَرقٌ في كلامِ المَوْتى

يَقِفُ الأعمى

فَيَجْمحُ الليلُ في البَـرّية مِثلَ حِصانٍ،

أنا أسوسُه

إلى مِذْوَدِ المِلح

والأحْلام!

يا مَعرِّي

أنتَ سَبقتَنا إلى هُناك

أنتَ أورثّنا قَوْساً لا يَرمي
ونُشّابا يَرتدُّ إلى ظهورنا عِندَ كُل مُحاولة

حَمَامتُك بينَنا باضَتْ
بِعُشِّ الغُراب

خَيْطُكَ لمْ يَسْعْ قميصا
يُطِلُّ مِنهُ وجهٌ
بِلا مُعْجِزات.

يا مَعرِّي
سَبَحْنا خَلفكَ
ونَسينا حَمامةَ نوح!

بَعْدَ السَّيفِ

الذي اخْتَرَقَ صَدْرَ رَجُل

مِن جِهة اليَسار

بَعْدَ مُداعَبة النُّمور التي يَتَوهَّجُ ذَهبُها في الذاكرة

كَنَارِ الحقيقة

.

بَعد التَّحْدِيق في وَردة ملتون

بِعيْنينِ مَليئتينِ بالرُّعب

بَعْدَ تقليبِ كِتاب الرَّمل

ساعةَ تَصمُتُ ذئبةُ الصَّحراء

بينَ الجوارح

قال الأعمى:

اِنْهَضْ يا بورخيس

الطَّريقُ طويلةٌ

والُمنْتحِرُ في قَصيدتك

"لَم يَسْمَعْ آخِرَ طائر

ولَنْ

يُوصِي

لَأِحدٍ

بِالعَدمْ"

أُوفيليا أغنيةٌ عذبةٌ

تَنُّورَتُها عَلَى المَاء تُشبِهُ وردةَ المَوتِ البيضاء

هامْلِتْ شَبحٌ

الأبُ يحلمُ

الابنُ يَعيش

الحقيقةُ بَينهُما فتًى يَجُرُّ جسدَهُ حِصانانِ مُتعاكسان.

الأعمى رَآى ذلِك.

ثِيابٌ تمْشِي

وَحدَها

تمْشِي

الأعمى خَلفَها

يَرصُدُ حَرَكةَ الحفيف

التي تَنْعَكسُ على وجهه

أَحْلامَ ملائكةٍ

تَقَاتلُوا في الطريق.

وحدَها ثِيابٌ تمْشي

الأعْمَى خَلْفَها يَرصُد انْثِناءاتِ اللَّيل

الأوْسَعِ مِن حُلْم شاعر !

قالَ لِي

" وثِّق البَـرْدَ

بِرُوحِ عَدْل

فَسرِّ الماءَ

بِرَجْفة شاعر

لَوِّن الرملَ

بِمَكْر ثُعبان

دَوِّنْ الموتَ

بِيَدِ أَعْمى"

قال أَيْضا

"الوَسَنُ
لا يقربُ عيناً
جَمّدها الرُّعب"

قال أيضا

"الماءُ والنَّار
لا يتَقَاتلان إلاَّ في جسدٍ
يَرغبُ مِثْلي
في العَيش
بَينَ الرماد والغَيم"

أيُّها المَثّالُ

أَعْطِني يَديْك
لِأصنَعَ أجْنِحَةً

أنا إيكار
أسْمَعُ الرِّيحَ
ولا أرى الشمس

الوحدةُ هي مَنْ يَقْتَاتُ مِن كَبدي
مثل نَسْرٍ
يحرسُ أسواريَ العالية.

يا أبي
أعْطِني يَديْك.

عينٌ تَدْمَعُ

حَجَرُها الأزرقُ مِن مِلح
البَحْر،
يَملأ الشرُّفةَ بِنَحيبٍ صامِت.

بِفَم المَحارة
خَتمَ المَوتُ عَلَى نَفْسِه
بِقِشْرَةٍ مِن غِناء السرِّينات

الدَّمُ يَمشي على الماء مِشْيةَ غُرابٍ
تَناثرتْ بُيوضَهُ
بِالأجْراف والقِيعَان.

أتقدَّمُ برأسي،

في هذه النُقطة مِن كلامِ غامِضٍ

سمَّوهُ الصَّحراءَ..

أقدامِي في الغِنَاء الُمتقلِّب كالرَّمل،

تَنعَى ماسّةً

اِخْتَطفَها مِنِّي طائرٌ غريب

تاركاً بِصَدريَ

الُجرْحَ الغائر!

بِرَأسي أَتَـقدَّمُ،

أنا لا أعرفُهُ إلاَّ مِن ريشِهِ المُتناثِرِ
في الليلِ كالوَسَاوِسَ

هو لا يَعرفُني
إلا مِن دَمٍ يَشخُبُ فوقَ الثرّى
كأزهار الخَشْخاش.

أَنَا الأعمَى

استيقظَ الثلجُ بعيني

قَبْل الصَّباح

أنا الصَّباحُ

اسْتَيْقظَ الأعمى بِقَلْبي

قبْلَ الثَّلج

أنا الثَّلجُ

استيقظَ الصَّباحُ برأسي

قَبْلَ الأعمى

وفرَّقَ طيوري على المدينة.

أَنا الشّاعرُ رَأَيْتُ الأَعْمى والصَّباح

يَتَبادَلانِ الشَّتائم

بأكثر مِن لِسان

وَيأخذانِ الطريقَ

بِقدَمٍ واحدة.

السَّاعةُ

المرمية على الرَّمل مِثل سِكِّين

السَّاعةُ

السَّاقطةُ مِن أُغْنِية الرِّيح

السَّاعةُ

الواقعةُ مِن صَلاة الغَيم

السَّاعةُ

الُمحدِّقةُ في بَيَاضِ الثَّلْج

السَّاعةُ

المُتعثرة بِدَابّة الأبدية

السَّاعَةُ

المُخَشخشةُ مِثل نَمِرٍ يَفتكُ بِغزالٍ على العُشب

السَّاعةُ

النَّازفة مِنْ رِجْلِ الأعمى

جَميعُها،

تَشهدُ واحدةً واحدة، كيفَ خاطَ الغيبُ قميصَ الدُّنيا

ودَسَّ فيه العويل.

الماءُ مطبعةُ الرُّؤى

النهارُ ورشةُ التِّيه

أنا بينهُما الأرضُ المَعْجونَةُ بِالأقدام

والكلامُ الذي يَسْعى

إلى الكأس

مِثلما تَسعَى أفعى الظَّهيرة

تَحْت العُشبِ

بَينما لسانُها المشقوقُ يَلْهجُ

بِدَمِ

الطَّرائد.

أنا الأَعْمى

رأيتُ في الصَّباح
خِنجراً مغروساً بِظَهْر النَّاطور

رأيتُ بُستاناً مَنهوباً

رأيتُ نُدفَ الثلج تَهْمي مِثل فراشاتٍ حمراء

رأيتُ قِطارا يخورُ
مِثل ثور في البرية

رأيتُ ناراً

تُرضِع أعراباً عُراة

رَأيتُ الماءَ يَطبعُ الرُّؤى

والرَّملَ ناشرَه الوحيد

رأيتُ كلَّ ذلك

ومضيتُ

مُتأبِّطاً رأسي الذي كان يَرطِنُ طِوال الطريق

بِلُغاتٍ غريبة!

حَساءٌ لنا،

أنا وصديقي الأعمى،

لكنَّ قَدمَ أحَدِنا

لِلنَّسْرِ المُحَلِّق.

خُبزٌ لَنَا،

أنا وَصَديقي الشاعر،

لكنَّ الخَـمْرة المُعَتَّقة في الجِرار مِن نَصِيب برابرةٍ

لفظَتهُم العَاصِفَة

بأبوابِ

ليلِنا البارد.

يَدُه تُخبِّئ الماءَ
وقَدَمي تَأكُلُ العِضايات
قَبلَ
أنْ تَغمرَها رمالُ الله بِرمالِ الله.

الليلةَ، تمزّقَ رَعْدٌ كثيرٌ في كِتاب السَّماء
وما مِن أُغْنِية تقولُ ذلك!

حَجَرٌ

يُبْصِر الطريقَ

بِعُيون صِلٍّ يَعْتليهِ

في صَمت.

شَجَرةٌ

تتنفَّسُ الحياةَ

بِرئةِ ماعِزٍ يتَسلقُها

في جَلبة.

قال الأعمى:

" الصمتُ والجلبةُ

مَوْصولان بالحيوان الَّذي يَقفُ بِعَمودي الفِقَري

على هذه الأرض".

أسيرُ

لا ألتفتُ إلاَّ لِقَدمي

وهي تُمزِّق صفحاتٍ مِنْ كِتابٍ مَسْطور.

أنامُ

لا أنتبهُ إلاَّ لِيَدي

وهي تَنهبُ بُسْتانَ الأبدية

الجراحُ في فَمي دليلي الوحيدُ على أنِّي لِصٌّ نفسي

وأرضي كتابٌ لِمَنْ يُمليه على الشاعر!

"المدى حيوانٌ
يَمتطي قدمَيْ
هَسيسُه الأسلاكُ الشائكةُ التي تَصعَقُ قلبي
في اللَّيل والصباح"

قال الشَّاعِر

وهو يَهمُّ بِذئبٍ
باغَته يَشْربُ مِن قِربَته
التي جَمعَ ماءَها
قَطرةً قطرة مِن أرْواحِ الشَّجر.

عَربةٌ مجرورةٌ بثورٍ أَعْمى

حياتي بِهَذا المكان.

أكوامُ الخشب تنتظرُ مَن يُلقي بِقَلْبِها ناراً،

أنا أيضاً أَنْتَظِر!

إذا عَبرَ طائرٌ

رَشَقتُه بنظراتِ الأسى

إذا عَوَى كلبٌ

قُلْتُ خُذْ حياتي كعَظْمةٍ بين فكَّيك

إذا مَرَّ ببابي مُتَسوِّلٌ بادلتُه كلاما عَن الوحدة

وأغلقتُ بابي عَلَيَّ

التِّينُ يَنضَج ويَسقطُ كالحَجَر

كَذلِك حياتي

بِهَذا المكان!

أطلُبوا شاحنةً تُفرغُني بعيدا

لَكِنْ أبعدو الأطفال،

شقاوتُهم تُعيدني

إلى ما ضَاعَ

مِنِّي

منْ

أَمَلْ!

خُذُوا عينَي

قُولوا تِذكاراً مِن الأعمى

بِهِمَا رأيتُ حورياتٍ يَحملن جِرار الماء

بهما رأيتُ النَّملَ يُهَرِّب ميتات الحشرات

بهما رأيتُ نابَ الخنزير

بهما رأيتُ سُقراط يَتجرَّع السُّم

بهما رأيتُ شبحَ هاملت

بهما رأيتُ المُدْيَةَ التي فَتكتْ بالمُتنبي

بهما رأيتُ العنكبوت التي خبَّأت غارَ النَّبِي

بهما رأيتُ نِمرَ بورخيس المُخَطط

بهما رأيتُ العصفورة تَفْلِي ريشَها، تحت شَمْسٍ باردة

بهما رأيتُ السِّياب يصيحُ بالخليج:

" يا واهِبَ المحار والردى"

بهما رأيتُ بِسُوا يُدوِّن صفحاتٍ مِن كتاب اللاَّطمأنينة

بهما رأيتُ كوميديا شابلن السَّوداء

بهما رأيتُ باول تْسِيلان يَحْيا بِزَعانفَ حمراءَ

بين طَحَالِب النَّهر

بهما رأيتُ يونس في بَطْنِ الحوت

بهما رأيتُ النارَ تبردُ والماءَ يَغيضُ والطِّينَ يَنْتَصِبُ أعْمَى

بهما رأيتُ اليدَ تَرمي الطفلَ بَيْـنَ أشياء القُمَامَة

بهما رأيتُ المَرأة تَهْوي مِنَ الشرُّفة

بهما رأيتُ الناسَ يَحملون صَنَاديقَ الزَّيت وأكياس السُّكَّر

بِهما رأيتُ ما رأيت!

خُذُوا عينَيّ

رُبمَّا

كُنْتُ أقلّكم حَظّاً!

أَنَـا لي طَرِيقٌ أُخرى

أَنَـا لي وَحْدتي
التي يَخرجُ مِن طِينها شاعرٌ
لا أعرفُه
لكنَّه يُصِرُّ على رَمْي بَعْضِ الأزهار في طَرِيقي

رُبمَّا
الأَزْهارُ في بلاده
كَانَتْ
تَعْنِي أشياء أخرى!

بَاكِراً لا يَصلُ إلاَّ عَطشي
يُزاحِمُه على السرَّاب عُصْفورٌ وحِمارٌ وحشي.

أستأنِسُ بِأَسَدٍ
رَبَّيتُه بين ضُلوعي،

كان اليومُ طويلا، والشَّمسُ امرأةٌ تَغزلُ حريراً لِمَن يسيرُ بِلا كَلَلْ.

كان المدى أبيضَ ومَرَّةً أصفرَ
وَمَرَّ طائرٌ فوقي،
وبالنَّارِ التي رَشَقني سَوَّيتُ هذا الحَيَوان الضَّاري
ومضيتُ،
كَمَا أَنَا الآن..

قِصَّتي لِلشّاعِر
وحياتُه لي أنا الأعمى

أحدُنا سَهَا عَن نَفْسِه وقَبْل أن يَغْمُرَها النَّدى
أو الغُبار
غَمرْتُها أنا

.

قبلَ مجيء الفَجْرِ بِجِرائه
المُغْمَضةِ العُيونِ!

لمْ أَطْرُدِ النَّدى،

وإن كنتُ ما أزال حيًّا فبحُبَيْبَاتِه

لمْ ألعنِ الغُبار

وإنْ كُنتُ ما أزالُ أَسْعَى، فَبِسبَبِ أقدامِه

التي علَّمتني العَدو!

هَذا ما يقولُه

كلُّ مَن رآني أنسجُ بِيدي ملابسَ يَرْتديها صديقي

الذي لا بُدَّ لي منه

صديقي

الذي لابُدَ له منِّي.

عِندمَا يمَشي

تُصبح

الأشجارُ ورائي.

عِندما يَقتعدُ حَجراً

في الخلاء

يُصبح، هو والصِّلُّ

الذي يكمُن لِلجرادة،

أنا الجائع.

أسمعُ شقشقةً بعيدةً، وأنتبهُ بَعْد حينٍ للعُصفور الذي

أطلَّ مِن رأسي

قَبْلَ أنْ يُحَلِّق بِجَنَاحين،

لَمْ أَخِطْهُما

فِي وَحْدتي.

ـ لَمْ أكتبْ شيئا

عَنْ رِحْلَتي،

* ما تَرَكْتُ شيئا

مِن رِحْلَتي!

ـ لَمْ أعثرْ على عِظامي في الأَرْضِ السّابقة

* مَا تَرَكْتُ شَيْئاً مِن رَمَادي

الآنَ آوْ في ما مضى!

ـ الَّذي سَيَأْتِي

أشمُّ

رِيحَه

* الَّذي سَيَأْتِي،

يَبعثُ الزئيرَ في قلْبِ أسدٍ

سَوَّيْتُه مِن نارٍ

لا تَخمَدْ!

ـ لا أَعْرِفُ مَن أنا!

* كلامي مُوَجَّه لهُ وهو يَنْظُرُ

إلى رأْسٍ بعيدة!

ـ عيوني تَدْمَعُ مِن حياته

كما تُمطر السماءُ في أرض يَتَشَوَّف إليها

قَلْبُه الأزرق!

* كَلِمَاتي تَطفر مِن دَفَاتره، كما يطفر الطائر

مِن بَيْـنَ حَصَىً الطَّريقُ!

- يا أَعْمى

تَرجَّلْ
لِأرى ما يُضْمِرُه الخيالُ
في مشية ربما لا تكونُ إلاَّ بأقدامي

* يا شاعرُ
انفضْ عن رِيشَك ماءً
رُبمَّا لم يَنْدَلِقْ
إلاَّ مِن عَينٍ،
بِهَا
رَأَيْتُ!

ـ مَهْما كَانَ،

أريدُ لكَ الماءَ والنَّاي.

* مَهْما تَقُولُ،

أبْغِي لكَ النَّارَ والبَيْت.

ـ مَهْما حَدثَ،

أريدُ لَكَ الخَمْرَ ومَنْ يَسكبُها في كأسكَ الشَّفافة.

* أريدُ لكَ القميصَ

غِطَاءً ومَهْدا وسَرِيراً وأُغْنية.

سَأمْضِي إذا كُنتُ وَحْدي،

رُبمَّا نَادَيتُ عليكِ لِنَتَشاجَرَ في الطَّريق

رُبمَّا سَرقتُ مِن ميركَ

ما يُبرِّرُ خوفي!

رُبمَّا حَلُمْتُ بِيَديك

وأنا أُقَاتِلُ وُحُوشاً لاَ أَعْرفُ أسماءَها

رُبمَّا هَربْتُ

بِقدمَيكَ مِن حَبْلِ مِشنَقة

رُبمَّا نَطقتُ الحقيقةَ بِلسانِك واسْترَحتُ

رُبمَّا جَرَّبتُ البَرَصَ بِجِلدِك لأِبدو قريباً مِن الحِمارِ الوحشي الذي أُحبّ!

رُبمَّا وقَفتُ لِلأْفعى نِداً،
ولم أُباغِتها بِحَجَرٍ على الرَّأس
بمُجرَّدِ ما سمعتُ
خَشْخَشةً
تحْتَ
العُشب.

سَأمْضي إذا كُنتَ وحدَكَ رُبمَّا تَخلّصْتَ مِنّي
وورثتَ البرّية!
كمَا ورثَها أحفادُ آدم.

لكن تَذكرْ
أنَّ مَنْ يَرثُ لا يَعْرِفُ كيف يعيشُ!

تَذكرْ أنَّ قِرَدة وَرثتِ الأشجارَ فلمْ تفقِدْ الذيول

ولْم تحْتجْ إلى الكلام
لذلك تعيشُ زَاعِقَةً مِنْ غُصن لِآخرَ
مِنْ غابة لِأخرى!

تَذكرْ أنَّ الماءَ يُمكنُ أنْ يَغسِلَ الفأسَ مِنْ آثار الدِّماء

لكنْ، مَن يَغسِلِ الدِّماءَ مِنْ آثار الفأسِ
ليسَ هو الماءُ بالطبع،
لذلك نَشرَبُه
ونَحِنُّ إليه
ونصطادُ مِنهُ رِزْقَنا على الأنهار والسَّواحل والبُحيرات
والخُلجان!

تَذكَّرْ أنَّ اللَّيلَ الذي وَرثَ اللَّيلَ السَّابِق
هو مُجَرَّد ليلٍ بِلا مَعنى!

تذكَّرْ أنَّ الثلجَ
يعودُ إلى دارهِ وصِغارهِ
ولا يُمكن أن يُمضي كلَّ حياتهِ مُتنكِّرا
لذلك كُلَّما هَزَّه حَنينٌ
اِعترَتْه رعشةٌ، وعاد قبل طُلوع الصَّباح إلى مَوطِنه
يَسقي البساتين
يملأ الجِرَار
ويَكْمُنُ للناس في القناني والغُيوم والصَّنابير،
يَكمُن لَهُم خلفَ الجُدران
وتحتَ الشجر!

تَذكَّرِ أفعالَ المَطر

والأيدي البيضاءَ للنَّار الَّتي تُشبه مُمرِّضَةً

في البيت..

تَذكرْ غِناءَه الرتيبَ على النافذة، دونما حاجة

إلى جسد!

سَبقنِي شعراءُ

إلى هُناك

مِن هُنا لم أعرفْ يوماً ما يقعُ هناك

سَمعتُ الرعدَ يُمزِّق كِتابَه

سَمعتُ العويلَ

سَمعتُ الريحَ تكسِرُ الأبوابَ وتُطَوِّحُ بالنوافذ

كُنتَ وحدي

وأنا معي

أيُّها الأعمى

لا تَتَعجَّلْ طَيَّ الكتاب على نَفسِكَ
سَتبقى أقدامُك بالخارج
وَكُلَّما سَمِعتَ خُطوةً تزحَفُ على الحَصى البارد
اقتربْتَ مِنْ بَيتٍ لا أحد!

أنا هنا

وأنتَ هناك

أردتُ أنْ ألعَبَ مِن أجلِكَ لُعبة المَلِك والمُهَرِّج

لكني لمْ أجِدْ رأسي بينَ كَتفي

ولا يَدي تَحمِلُ قناعا

السَّيفُ كان بِيَد الأغنية!

يا أُنشوطةَ الليالي

دَعي الليالي تُقلِّبُ صفحاتِ الليالي.

لا ترمي

أصابِعي لِلضِّباع.

ـ أنتَ لم تبرحْ هنا

ـ أنا ما لمستُ شَعَرةً مِن هُناك

النَّسيمُ يَجْرحُ أصابعي

فَكَيْفَ

لا أنزفُ

مِن أشواك

المَوت؟

رَكِبْتُ بَغْلي

وانتظرتُ صَفيرَكَ الَّذي يُؤنِس التَّائه

يا عُمْر الخيال

عَمِّر بِهذه الأرض المُوحشة

إذا أَدْرَكتَ

شِرْياناً يَنضَح هُناك

سَلْهُ عن شُعراءَ أقلعوا مِن مينائنا القديم،

وَتَركوا كتابَهُم بينَنَا

مِثلَ مَرْكَبٍ طافِحٍ بالماء!

أخي

محمود درويش، اِرمِ أشعارك مِنْ شُرفة الآخِرة

اِرْم نَردَك فوق رخامة القبر

لِأعرف كيفَ هُو الطقسُ

بالأبدية البيضاء،

كيْفَ تغرقُ الشَّمس في بَحركم

الهادئ

كيفَ يتداولُ المَوتى أيَّامَهُم

وماذا يَلْمَعُ في عُيونهم عِندما يَهْمِي المطرُ

وتزحفُ الحشراتُ الصَّغيرةُ

فوق نداوة العُشب!؟

تَركتُ أختاً

وعُدتُ وحدي

لم أعثُرْ على الشّاعر الذي طَوَتْهُ رمالُ الطريق

إلا وَرَاءَ عربةِ الأعمى

تركتُ الرغيفَ الدافئ

تَرَكْتُ الحليبَ الأعذب مِن غناء كروان
تركتُ النظرةَ التي تُساوي ألفَ فراشة وفراشة
تركتُ الجدولَ الذي يأتي كلَّ مساءٍ إلى البيت
مُحمَّلا بالسَّمك والضَّحَكات
تركتُ الضفيرةَ الملأى بالقمح
تركتُ الأملَ يُفكِّكُ لُعبَته أمام الأطفال
وعدوتُ وراء الأعمى

قبلَ أنْ أهتدي إلى عَربةٍ
يَجُرها فوق الثلج والصمت
زوجُ بِغاْل.

هُنَا،

الغُبَارُ يُخفي شَيْئاً اسمُه روحي

التي تثغو كلَّ صباح،

الشمسُ تدنو مِنَ الليل المُتنكِّرِ في جِلباب الأعمى

الشاعرُ يقتربُ مِن غَفْلته

عندما يفتحُ النافذةَ

ويُصغي لكلمة الله

يا دندنةَ الأنهار الصفراء

يا رأسَ السُّهوب

غَنِّي بأوجاعي

.

تركتُ المدينةَ

وهبطتُ مع الليل مِن كَمانٍ خفي

كانتْ قدمي مُتأهبة للرَّقص

ويَدي

تُطوِّق خِصْرَ الشَّبح!

يا أعمى

قُلْ لِخطوتكَ أن تُفسِح الطريقَ لروحي

قل لِكلمتك أن تَبيضَ في الرمال

قل للسانك أن يَتذوَّق طعم الثمرة

قل لِجلدك أن يلمسَ جِلد الأفعى

قل لِنَايكَ أن يُخرجَ صديقا مِن بين الأَجْدَاث

قل لأذنِك أن تسمعَ ما أرى

قل لقلبِك أن يَنْفلتَ مثل عُصْفور الفتاة

قل لأصابعك أنْ تُحرِّك الهواء

أنا تَعِبتُ مني

وأَبْحَثُ عن جَسَدٍ آخر

أتيه فيه!

يا شاعر

ما بَقيَ مِنكَ يَحيا بينَ ضُلوعي

بألمٍ ما شُفيتَ منه!

أنتَ لستَ فاوست

وأنا لستُ الشيطان.

والّذي بيننا أكبر مِن أي رهان

أيها ألأعمى!

إلى أين أذهبُ
وأيُّ النجوم أقولُ نجمتي؟

الأرضُ والسماء أنجباني يوما
ولما فَتحتُ عينيَّ،
فَقَأَتْهُما الشَّمس.

لمْ أجِدْ غيركَ بالبرّية، غِناؤكَ الجارحُ جاءني مِنْ وراء صَخْرة
ولمَّا تلَّمستُ قلبي
عَثرتُ على يديك!

أيُّنا الأعمى

أيُّها الشاعر الذي هَبطَ بي إلى أرضِ التِّيه
مُعتقِدا أنَّه يَأخذُني إلى بَيْتي؟

الكلمةُ تقطعُ المسافة

لكنَّها

لا تَبلغُ القرار

أنا أيُّها الأعمى

مثلُك

ابنُ هذه

المسافة،

أتصدَّعُ مِن الشَّوق!

رميتُ قدمي

ومضغتُ الرجاء

كما يَفعلُ عجوزٌ بزهرةِ الخشخاش

عندما يَدلهِّم الليل.

علِّمْ كلبَك الصَّمت

علِّم بومَك النَّعيقَ بأرض أخرى

علِّم بَغْلَك السَّعي بلا روحك القلقة

علِّم خيالَك التَّحليق فوق رؤوس الشعراء

علِّم يدَك الصَّيد بِصَقْر الغيب

علِّم نارَك مزايا البَرْد

علِّم طريقَك الاستئناس بِصَفير النُّجوم

علِّم كلمتَك الانبثاقَ مِن الصخر

الأزهارُ تفعلُ ذلك

وتتفتحُ

عندما ترشفُ كلمةَ الله!

أعشابُ الطريق تتطاول، الوحدةُ وَحْدَها تقضِمُها،
مثلما يفعلُ بَغلُك
عندما يَشتدُّ به الجوع.

أيُّها الشاعر
إذا دَحْرَجتَ هنا حَجَراً،
صارَ صديقا لقدمي

إذا أطلقتَ صيحةً في فجٍّ بعيد
حَسِبتُها عليّ!

إذا قطفتَ وردةً مِنَ الوادي الغريق

استنشقتُ عبيرَها القاتل

إذا وقَعَتْ مِن يَدَيْكَ كلمةٌ

تكسرَّتْ نافذتي

وحَلَّ بروحي

هواءٌ غريب!

هلْ أنتَ يوسف

وأنا يعقوب

والصحراءُ المتَلاَطِمة حولَنا بألفِ وَجْه، هل هي إخوتُك

الذين ضَلَّل أرواحَهُم الذئب؟

أيُّها الأعمى

أنتَ أَطْعَمتَ الهُدهُدَ
وأنا رأيتُ الماءَ يُغَني بِزُرقةٍ تَحْتَ الأرض

أنتَ غمغمتَ بِبِضْعَة كلماتٍ
وأنا رَميتُ
كتابي مِن النافذة

كانَ القَصْرُ صامتا مثل قلب أيّ عَبْد
وكانتِ الملكةُ تَحلمُ ومفاتيح البرِّية
تَحْتَ وسادتها!

أنتَ رأيتَ الهُدهُد

وأنا لوَّحتُ بالكلمات التي عادتْ من بعيد

مُحمَّلة بِالهدايا والخوف،

الخوفِ والرؤيا!

أيُّها الأعمى

سَمعتُ أنَّك فقدتَ العزاء

سمعتُ أنَّك أضعتَ نَعْلَ الأمل

سمعتُ أنك نتفتَ ما علِقَ بِكتفيكَ مِن ريش

سمعتُ أنك تجَرَّعْتَ ما فَضُل بكأس الشاعرِ مِنَ السُّم

سمعتُ أنك تقلبتَ كُتبانا وراءَ أخرى

حتَّى طَمرْتَ عَربتَكَ

ونَفقَ بغلاك اللذان

أطعمتُ

بِيدي

أعشابُ الطريق

تتطاولُ

الوحدةُ وحدها تقضمها، تماما مثلما كان يفعلُ بَغْلايَ

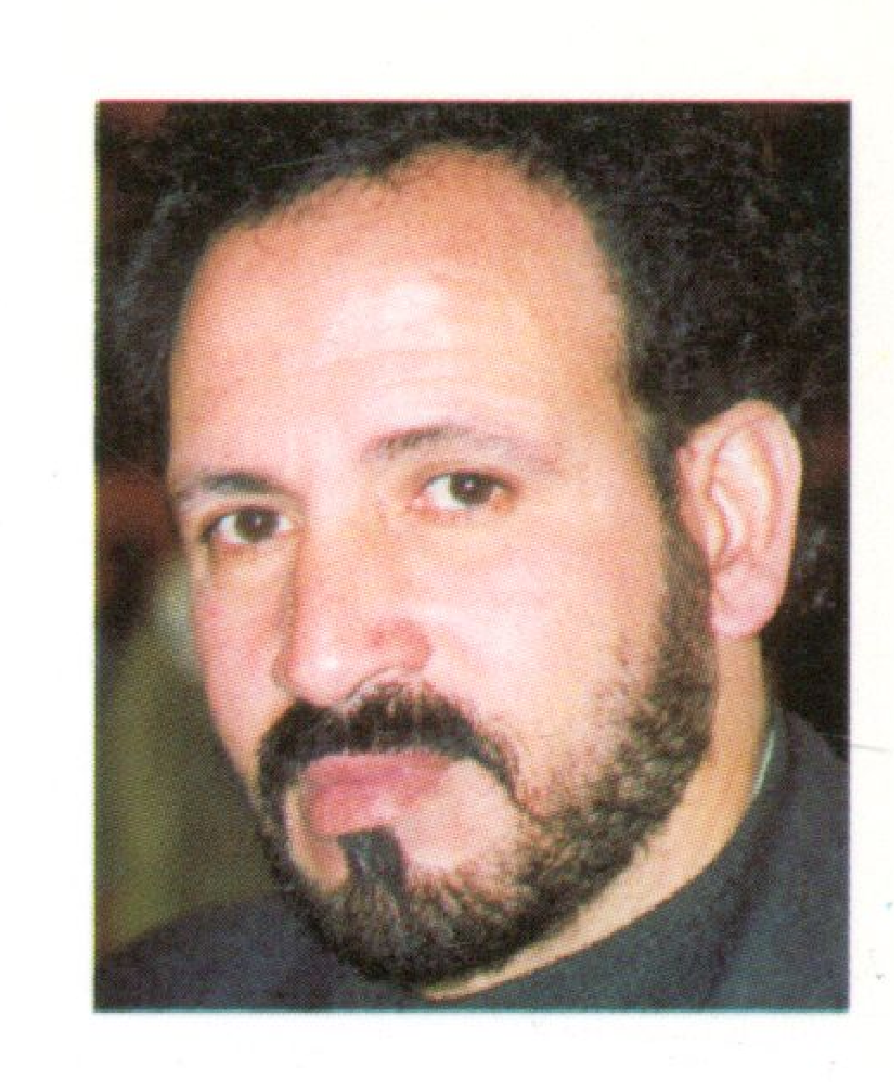
عِندما يشتدُّ بِهما الجوع!

أيُّها الأعمى

ماذا تقول؟

أيها الشاعر

"اُكتبْ بقوة".



نبيل منصر

من مواليد الدارالبيضاء سنة 1965

صدر له :

- غمغمات قاطفي الموت (شعر)، دار قرطبة، الدارالبيضاء، 1997
- أعمال المجهول (شعر)، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 2007
- مدينة نائمة (شعر)، دار النهضة، بيروت، 2009
- مدينة الموازي للقصيدة العربية المعاصرة (دراسة)، دار توبقال، البيضاء، 2009



لوحة الغلاف: الفنان عزيز أزغاي - تصميم: إدريس برادة

الثمن: 30 درهما